ملامح رومنسية في غزل عذري

الدكتور محمد لطفي أحمد أحمد حويل
مدرس الأدب والنقد بكلية البنات الاسلامية بأسيوط

سيبقى تراثنا الشعري الذي نعتز به شامخا بمقوماته الفنية الأصيلة التي تقف في عزة أمام كل محاولة للتهوين من قيمتها تحت شعارات التحديث ... وهذا التراث ينادي محبيه من الباحثين الى النظرات المتأنية التي تستلهمه جماله ، وتستشف ما وراءه من طاقات تعبيرية ، ومن أصالة في شكله ومضمونه ، فمثل هذه الدراسات تقيم الجسور بين النشء وتراثهم ، وتمزق الحجب التي تفصل بينهم وبين شعرنا العربي الأصيل حتى اذا ما اتجه ذو موهبة منهم الى زاد فني ينمي به استعداده ، ويصقل به موهبته جنح الى هذا التراث فنهل من مورده العذب ليعزف على قيثارة الأصالة ويناغي وتر الجمال الفني.

واذا كنا قد بلونا الصراع بين القديم والجديد ، وعانينا من آثاره السلبية على أدبنا الحديث ، فان علينا أن نخطو دائما نحو التقريب بين القديم والجديد .

ولعل بحثي هذا خطوة على هذا الطريق ، فهو يقف في ظل غرض شعري موروث هو الغزل العذري ليتبين ما عسى أن يضمه من ملامح ربما يتصور متصور أنها من بدع الاتجاه الرومنسي في شعرنا الحديث.

ولا أستهدف القول هنا بأن للرومانسية الوافدة الينا جذورا في أدبنا العربي القديم ، فهذا ما لا دليل عليه ، ولا سبيل اليه ، ولا أرمي

ـ أيضا ـ الى القول بأن كل ما فى الشعر الرومنسى العربى من سمات له وجود فى الغزل العذرى ، فذلك لا يجد ما يؤيده من نصوص هذا الفن الشعرى ، ولكن الذي أعمد اليه هو النظر فى صور من الغزل العذرى تضم ملامح نراها واضحة فى الشعر الرومنسى العربى،وحين يتأتى لنا ذلك نكون قد خطونا هذه الخطوة للتقريب بين القديم والجديد .

وأحسب أن مما يشجع على هذه الخطوة أن شعراء هذا الاتجاه الابتداعى وان تأثروا تأثرا بالغا فى تشكيل شخصيتهم الشعرية بالاتجاه الوافد من الآداب الأوربية ولاسيما الأدب الانجليزى ، فانهم اتصلوا فى تكوينهم بتراثنا اتصالا وثيقا ، فقد كان زادهم الأول،وكان اللبنة الأولى فى بنيتهم الثقافية،وقد شدهم الى هذا التراث دور حركة الاحياء ، وما صحبها من توجيه نحو هذا التراث ، ومع اتصالهم بمنابع الشعر فى عصوره الأولى « أحب هؤلاء الشباب من الشعراء القدامى أكثرهم ذاتية ، وأرهفهم وجدانا ، وأكثرهم التفاتا الى مشاهد الطبيعة . ومفارقات الحياة وطوايا النفس من أمثال الشعراء العذريين وابن الرومى »(١) وغيرهم ، ويمكن لنا دعم ذلك باشارات سريعة أبعد ما تكون عن الاستقصاء ، ذلك أننا نجد فى شعرهم شيئا من تأثر بمعانى السابقين وبألفاظهم وصورهم يقول عبد الرحمن شكرى :

فليتك تحلو والحوادث مرة
وليتك واف والأنام غوادر
وان نلت منك الود والعطف والرضا
فلست أبالى أن تدور الدوائر

---

(١) د. عبد القادر القط فى « الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر » ص ١٣٥ ط ٢ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

وهو نظير قول المتنبى وأبى فراس المعروف :

عليك تحلو والحياة مريرة ولبيتك ترضى والأنام غضاب
اذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

ومن احتذائه قوله :

أبيت طوال الليل أبكى بحرقة كأنى ثكلى قد أصيب وحيدها

وهو نظير قول الحسين بن مطير :

ولى نظرة بعد الصدود من الجوى كنظرة ثكلى قد أصيب وليدها(٢)

ويقول مستعيرا صورة بدوية قديمة :

هياج كما هاجت قطاة تعلقت بأحبولة الصياد اذ ليس مهرب

ونظيره بيتا الشاعر العذرى :

كأن القلب حين يقال يغدى بليلى العامرية أو يراح
قطاة غرها شرك فبانت تغالبه وقد علق الجناح(٣)

ان مثل هذا التلاقى يدفعنا الى مزيد من النظر لنتبين هذه الملامح التى يتجه اليها هذا البحث الذى أقيمه على هذه الخطة .

ـ تقديم بيان مجمل يعرف بفن الغزل العذرى ونشأته وبالتفسير المناسب لظهوره .

ـ اشارة موجزة الى أبرز السمات التى تميز شعر الرومنسيين من شعرائنا .

---

(٢) المرجع السابق ١٦٨ ـ ١٦٩ .
(٣) المرجع السابق ١٦٧ .

ـ عرض الملامح التى نراها فى شعر الرومنسيين ، ونراها كذلك فى الغزل العذرى من خلال نصوص الغزل العذرى .

وفى تناولى ذلك لا أعتمد على الاستقصاء بأن أكتفى من النصوص بما يقدم الملامح البارزة ، وهذا يغنى فيه بعض الأمثلة عن بعض ، وليس هناك ما يمنع من تحليل المثال الشعرى اذا كان هذا التحليل معينا على التوضيح وتجلية الملامح،ولن أكره نصا على أن يقدم ملمحا من الملامح ، ويكفينا ما يأتينا منها عن سخاء وطواعية .

ذلك تقديم ندخل منه الى أول ما نستهل به دراستنا وهو :

التعريف بفن الغزل العذرى :

شاعت كلمة الغزل لتكون اطلاقا على فن شعرى تعددت ضروبه وصوره ، ولكنه مهما يكن من صور هذا التعدد ، فهو يدور فى فلك المرأة ، ويتخذها محورا : يرصد محاسنها ، ويبرز مفاتنها تارة .

ويحدثنا عما يلاقيه عشاقها من لواعج الشوق ، أو يمزج بين الأمرين تارة أخرى .

والشاعر قد يجعل حديثه فى مطلع قصيدة لا تختص بالغزل ، وقد يفرده بقصيدة قائمة بذاتها .

وفى حديثه قد يكون مفتونا بالجمال موكولا بالحسن يتبعه أينما كان وفى كل حسناء تقع عليها عينه ، وقد يجعل شعره لواحدة دون سواها . لا يرى الجمال الأنثوى فى غيرها

وهو فى حبه الباعث الى غزله قد يكون منقادا لغريزته يستجيب لنداءاتها وقد يسمو فوقها معتصما بالعصمة لائذا بحصنها ... وقد يسمو أكثر فأكثر فيبعد عن الظاهر ، ويرمز الى الجمال الالهى فى نزعة صوفية .

وكل تلك الصور التى أشرت اليها تنطوى تحت الكلمة التى درج عليها أكثر الباحثين وهى «الغـزل» ، وأغلب الظن أن الكلمة مرادفـة للكلمتين المعروفين «النسيب ، والتشبيب» ؛ وفى معاجم اللغة ما يقوى به هذا الظن الغالب ، فالغزل « حديث الفتيان والفتيات • ابن سيده• الغزل : اللهو مع النساء ••• ومغازلتهن : محادثتهن ومراودتهن ••• تقول : غازلتها وغازلتنى وتغزل : أى ــ : تكلف الغزل •••• »(٤) أما النسيب فيقدمه المعجم على أنه مرادف للغـزل والتشبيب • جاء فى لسان العرب « نسب بالنساء ينسب ــ بضم السين وكسرها نسبا ونسبيا ••• شبب بهن فى الشعر وتغزل »(٥) ، وكذلك الشأن فى التشبيب • جاء فى المادة قوله « شبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب »(٦) •

ويلتقى بعض الأدباء والنقـاد مع علماء اللغة على أن الكلمـات مترادفة ، فابن رشيق الذى آثر التعبير عن الغزل بصورة لفظية أخرى هى : (التغزل) يرى هذا الترادف حين يقول : « والنسيب والتغزل، والتشبيب : كلها بمعنى واحد »(٧) •

والذى يرهف السمع ، ويصغى لوقـع الكلمات يحس أن كلمـة (غزل) أرق هذه الكلمات ، وأعذبها وأنها أجرى على اللسان ، ولهذه المزايا آثرها الدكتـور أحمد الحـوفى فى دراسته لفن الغـزل ، وقال « ولقد اخترت كلمة الغزل دلالة على الأنواع كلها ، لأنها أخف نطقا ، وأكثر شيوعا »(٨) ، وللأسباب نفسها كان اختيارى لكلمة (غزل) فى

---

(٤) ابن منظور فى لسان العرب م/٥/٣٥٥٢ دار المعارف ١٩٧٩ .
(٥) ابن منظور فى لسان العرب ٦/٤٤٠٥ •
(٦) المرجع السابق ٤/٢١٨١ •
(٧) ابن رشيق فى العمدة ٢/٢١٧ •
(٨) د• أحمد الحوفى فى « الغزل فى العصر الجاهلى ص ١١ ط ٢ سنة ١٩٧٢ دار نهضة مصر القاهرة •

عنوان البحث ، والذى يعنينى من ضروب الغزل التى أشرت اليها هو العذرى منها ، ولكى تقدم تعريفا للغزل العذرى فاننا لا نستطيع تقديم تعريف جامع مانع ، فذلك ما لا سبيل اليه فى الدراسات الأدبية،وهناك من حاول تقديم تعريف له فحدثنا فى بداية محاولته عن الحب العذرى الذى رآه قائما على النقاء عنصرين اثنين : العاطفة الدينية ، والميول الجنسية ، ثم قال بعد ذلك : « أما الغزل العذرى ، فهو التعبير الفنى الشعرى عن هذا الحب ... »(٩) ومكمن الغموض فى هذا التعريف هو احالته الى الحب العذرى ، وهذا يتطلب لمن يتتبع الغزل العذرى قدرة خاصة تمكنه من تحديد الحب الذى بعثه فان كان حبا عذريا حكم للغزل بأنه عذرى،وان كان من غير العذرى فالغزل الناتج عنه يكون غير عذرى ، وتلك القدرة نادرة ويكتنفه غموض آخر هو حاجة الدارس فى تحديد الحب العذرى الى عرضه على عيار دقيق يتأرجح بين الدين والجنس ... هذا فوق أن هذا التعريف ان صلح للغزل العذرى فى عهد الأمويين ، فلن يصلح بحال للغزل العذرى أيام الجاهليين فالشاعر أيامهم يدين بالوثنية أو ما يشبهها ، أما الشاعر فى العهد الأموى فمسلم يستمد قيمه من اسلامه .

ويعرف بالغزل العذرى باحث آخر فيقول : « أريد بالغزل العذرى هذا الضرب من الغزل الذى تشبع فيه حرارة العاطفة ، وتشع منه الأشواق ، ويصور خلجات النفس ... ، ولا يحفل بجمال المحبوبة الجسدى بقدر ما يحفل بجاذبيتها ... ثم يقتصر فيه الشاعر على محبوبة واحدة طيلة حياته ، أو ردحا طويلا من حياته »(١٠) ، وهذا التعريف أقرب الى ماهية الغزل العذرى غير أننا بحاجة فيه الى مصدر

---

(٩) د. شكرى فيصل فى تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ٢٨٦ ط ٦ مارس ١٩٨٢ بيروت دار العلم للملايين .

(١٠) أحمد الحوفى فى الغزل فى العصر الجاهلى ص ١٤٤ .

تاريخى دقيق لينبئنا بموقف الشاعر فى تغزله • أكان بواحدة أم أكثر ؟ ولعلنا نكون مضطرين فى بعض الحالات الى تصنيف شعر أحد العذريين الى نوعين : غزل عذرى حين كان يقصر شعره على واحدة ، وغير عذرى لو قال التاريخ انه تغزل فى بعض سنى عمره فى أكثر من واحدة ذلك اذا احتكمنا الى هذا التعريف •

وأحسب أنه يكفى للتعريف بالغزل العذرى تقديم الخصائص السائدة فيه والسمات الغالبة عليه ، فذلك يساعد على تمييزه عن غيره من ألوان الغزل الأخرى ، وأبرز هذه:

١ ــ الصدق الوجدانى مع غلبة الجانب الروحى •
٢ ــ ظهور عنصر الألم والمعاناة فيه •
٣ ــ بروز مكانة المحبوبة وعلو شأنها •
٤ ــ هيمنة العفة على المتحابين •

أما العنصران الأولان ، فيأتى حديث مفصل فيهما •

والذى يتتبع شعرا لأولئك الذين التقى النقاد على عذريتهم سيجد ما يؤكد العنصرين : الثالث والرابع •• لقد بلغت المحبوبة عند الشاعر العذرى منزلة سامية ، فهو يجلها ، ويعلى شأنها ومما يدل لهذا قول ابن الملوح :

فقالوا أين مسكنها ومن هى
فقلت : الشمس مسكنها السماء
فقالوا من رأيت أحب شمسا
فقلت على قد نزل الغطاء

اذا عقـــد القضـــاء عـــلى أمـــرا
فليس يحـــله الا القضـــاء (١١)

يلقى الشاعر فى روع المتلقى أن الناس حائرون فى أمر هذه التى استحوذت عليه ، ولذا فهم يسألون : من هى ؟ أين مسـكنها ؟ ويجىء الجواب ينطق برفعة قـدرها ، فهى الشمس علوا ، ومسكنها السـماء سموا .. ويفترض أن جوابه هذا أثار مزيدا من الدهشة ، فكيف يحب شمسا ؟ ويكون جوابه معبرا عن الاستسلام لسلطان الهوى ، فمـاذا يصنع وحبها قدره ؟ ان وراء الأبيات صورة الشاعر المبهور فى استشرافه وتطلعه الى هذا الشموخ الرفيع ، ولكنه تطلع يائس فلا سبيل الى هذا النور العلوى ، ولا مهرب من الانجذاب اليه ، وهل هناك راد لقضـاء غالب الا بقضاء ينسخه ؟

ولما كان للمحبوبة هذا المكان العلوى امتلأ العاشق منها اجـلالا ومهابة يقول العامرى :

أهابك اجلالا وما بك قـدرة على ولكن ملء عين حبيبها (١٢)

وهذا منه حديث المهابة التى مردها الاجلال ...

انها لا تعود الى التفوق النوعى ، ولكن المحب يجعل المحبوبة ملء العين والتعبير هنا ـ على يسره ـ يوحى بأبعاد هذه المهابة التى تملأ عين المحب اعزازا واقناعا ، ورضا ، وتقديرا .

أما العفة ، فعنصر واضح فى الشعر العذرى فشأن شاعره الرضا بالقليل فيقول :

---

(١١) ديوان مجنون ليلى تحقيق عبد الستار فراج ص ٤٣ دار مصر للطباعة ١٩٧٩ .

(١٢) المرجع السابق ٧١ .

أليس الليـل يجمعنى وليـلى ألا يكفى بذلك من تدان (١٣)
ترى وضح النهار كمـا أراه ويعلوها الظلام كما عـلانى

ان قوله هذا جعل أبا نواس يقول فيه : « أرضى الناس قيس بن ذريح »(١٤) ومثل هذا الرضا نجده فى حديث جميل حين يقول :

وانـى لأرضى من بثينـة بالذى
لو أبصـره الواشى لقـرت بلابله
بلا وبألا أسـتطيع وبالمنـى
وبالأمـل المرجو قد خاب آملـه
وبالنظرة العجلى وبالحـول تنقضى
أواخـره لا نلتقى وأوائله(١٥)

فماذا يتمنى له العاذل أكثر من هذا الحرمان ؟

رفض وتمنع .. أمانى ووعود مكذوبة .. نظرة خاطفة ، والعـام يمضى فلا يلتقيان .

وفى شعر العامرى ربط لهذا الحب العذرى بالعفة حين قال :

أحبك يا ليلى على غير ريبة وما خير حب لا تعف ضمائره(١٦)

يا لها من عفة تلك التى تتجاوز الظاهر ، وتعمق فتصبح سجـية الضمائر ؟؟ فحين تعف الضمائر تتوارى الرغبات .

(١٣،١٤) « يس ١٥١ قيس بن ذرع ـ شعر ودراسة » د. حسين نصار دار مصر للطباعة ١٩٧٧ .

(١٥) ١٦٩ من ديوان جميل د. حسين نصار مكتبة نصر ١٩٧٧ .

(١٦) ١٤٤ من ديوان مجنون ليلى تحقيق عبد الستار فراج .

هذا الغزل العذرى بمكوناته التى أشرنا اليها اجمالا ارتبط بالعصر الأموى الذى شهد شيوعه وازدهاره ، وكان مسرح أبطاله حتى لقد حسب الدارس أن ولادته كانت فى هذا العصر ، وتلك فكرة أثارت جدلا، وقد اقتنع بها من قال : « ... لم يكن من الممكن أن يظهر فى عصر الخلفاء الراشدين بالرغم من أن تمثل التقى والصلاح فى عهد الراشدين أشد ، وبالرغم من أن الانعتاق من بعض النواهى ، والتحرر من بعض التشدد وجد مجالا فى العصر الأموى أكثر مما كان فى عصر الراشدين، والأمر مع ذلك يبدو بسيطا .. فهذا الغزل العذرى يجب أن يكون أثرا لتربية جيل جديد تربية صادقة صارمة ... هذا من نحو .. ويجب أن يكون أثرا لنوع من الحياة الاجتماعية تعرف الاستقرار .. وكلا هذين الأمرين لم يتوافرا معا الا فى عصر بنى أمية ... ، لذلك لن نستغرب ولادة هذا الغزل فى العصر الأموى ... ففى هذا العصر آن لنا اذن أن نستمع الى دقات أوتاره الأولى »(١٧) .

ونلاحظ أن قوله هذا يخص العصر الأموى بالغزل العذرى ، وينفى وجوده فى صدر الاسلام أيام الراشدين ، ويذكر أن ولادته ودقات أوتاره الأولى كانت فى عهد بنى أمية ، ويسكت عن صلة الغزل العذرى بالعصر الجاهلى ، ولقد نسلم بأن عصر صدر الاسلام لم يكن المناخ الملائم لشواغل الغزل والعكوف على العاطفة المتقدة التى تتخذ المرأة محورها،ولكننا نلاحظ كما لاحظ كثيرون أن هذا الغزل قد برزت ملامحه الفنية ، وتجلت سماته فأصبح ظاهرة متكاملة بذاتها فى العصر الأموى، ولا نتصور أن ذلك حدث فجأة وبلا مقدمات ، واذا تم الالتقاء على أن عصر صدر الاسلام لم يحتضن هذا اللون من الشعر ، لم يبق لنا الا

---

(١٧) د. شكرى فيصل فى تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ٢٨٤/٢٨٥ ط ١٩٨٢/٦ بيروت دار العلم للملايين .

أن نعود الى العصر الجاهلى لنقول انه العصر الذى شهد ولادة هـذا الفن الشعر ، وواضح أننا لو تابعنا قوله بولادة هذا الفن فى العصر الأموى لسلمنا بأن هذا الفن قد ولد مستوى العناصر مكتمل النضـج واضح الازدهار وذلك لا يتفق وسنة الحركة المعهودة .

ولقد جاء فى شعر العذرى اشارة الى أن للغـزل العـذرى روادا يجرى على سننهم فى الحب ، والشعر . يقول ابن ذريح :

وفى عروة العـذرى ان مت أسـوة
وعمرو(١٨) بن عجلان التى قتلت هند(١٩)

ويقول :

فما وجـدت وجـدى بها أم واجـد
ولا وجد النهدى وجدى على هند(٢٠)
ولا وجد العـذرى عروة فى الهوى
كوجدى ولا من كان قبلى ولا بعدى

ففى ذلك اشارة الى ابن عجلان وهو جاهلى .

ولقد اطمأن أكثر من باحث الى أن الغزل العذرى ليس فنا اسلاميا جديدا بل هو فن عرفه الجاهليون ، ويذهب قائل منهم الى أكثر من هذا فيقول : « وليس ـ هذا الغزل ـ فنا ازدهر فى الاسلام على حين كان

---

(١٨) عمرو بن عجلان كما ورد فى الشعر ، والمعروف أنه عبد الله ابن عجلان هامش الديوان ٧٧ .

(١٩) د. حسين نصار فى قيس بن ذريح .

(٢٠) المرجع السابق ٨١ .

ذاويا فى الجاهليـــة بل كان ريان مثمـــرا فى العصرين ، ولكن أكثـــر القصص الاسلامية عرفت طريقها الينا على حين أخطأنا الطـــريق الى القصص الجاهلية »(٢١) .

ان وجودا للغزل العذرى مزدهرا على هذا النحو فى عهد بنى أمية كما أثار خلافا حول ميلاده فانه يثير الحيرة حـــول تفسير وجـــوده ، ويذهب بنا الى أكثر من احتمال تردد نـــدى الباحثين لنضـــعه تحت المناقشة :

قد يقال ان السبب من وراء هذه الظاهرة دينى محض ، فالاسلام وحده هو الذى أمد العربى فى باديته بالتعفف الذى بدا واضحا فى نزعة الشاعر العذرى ، ولكننا حين نقول بذلك يواجهنا الغزل الحسى الذى وجدنا له وجودا بارزا فى حاضرتى الحجاز على عهد الأمويين ، وذلك يضعنا أمام غزل من نوعين : عذرى شاع فى البادية .. وحسى ذاع فى الحاضرة ، وللاسلام أثره فى الحضر كما له أثر فى البادية ، اذ لا يقبل أن تستجيب البادية وحدها لنداءات الدين فيتجه شعراؤها الى العذرية العفيفة ، ويرفض مجتمع مكة والمدينة هذه النداءات ، وذلك ينتهى بنا القول بأن الاسلام وحده ليس صانع الغزل العذرى فعلينا أن نجرى وراء سبب آخر يعمل معه .

قد يقال ان سبب ظاهرة الغزل العذرى هو العـــامل السياسى ، فأبناء الحجاز بعد أن انحسر نفوذه ، وتقلص سلطانه أحسوا بقدر من الحزن فآثروا العزلة عن تيارات السياسة وصراعاتها ليعكف الحضريون منهم على اللهو،وليغرق البدويون فى مثل أعلى للحب ولكن ذلك لايحسم الأمر لأننا سنظل بحاجة الى اجابة عن سؤال ينشأ هنـــا : لماذا اختلف تأثير العامل السياسى ليكون اغراقا فى العفة بالبادية ،وليكون لهوا وغزلا

---

(٢١) د. أحمد الحوفى فى « الغزل فى العصر الجاهلى .

صريحا بالحاضرة ؟ ولعل ذلك يدفعنا الى القول بأن العامل السياسى لم يكن وحده صانع هذا الفن وأن علينا أن نبحث عن تفسيرات أخرى •

وأغلب الظن أن يكون ذلك راجعا الى طبيعة المجتمع فى البادية وما صاغه هذا المجتمع من أعراف وتقاليد لها سلطانها ، ومن هذه التقاليد المرعية :

ـ صيانة المرأة عن أن تنال بسوء يمس سيرتها أو يشين قبيلتها •

ـ وقوف القبيلة موقفا متعسفا من التجارب العاطفية اذا صاغها الحب شعرا فالقبيلة لا تسمح للشاعر العاشق بالزواج فلا يجد أمامه الا العكوف على أساه ويأسه والا الكلمات الشاعرة الحزينة ينفث فيها لوعته ، وينظمها قصائده معزوفة على وتر المأساة الأليمة ، وفى شعر أولئك شكوى من هذا التعسف • يقول العامرى :

ألا حجبت ليلى وآلى أميرها
على يمينا جاهدا لا أزورها
وأوعدنى فيها رجال أبرهم
أبى وأبوها خشنت لى صدورها(٢٢)
على غير شىء غير أنى أحبها
وأن فؤادى عند ليلى أسيرها

والأبيات توضح موقف القبيلة ، فليلى حجبت ، والرجال أوعدوه ، وتصدى لحبه أبوها وأبوه ، واستعدوا عليه أميرا حرم عليه زيارتها دون ذنب الا أنه أحب ، وصاغ حبه شعرا،فما كان نصيبه الا الحرمان الذى يؤجج العاطفة كما يقول العامرى :

---

(٢٢) ديوان مجنون ليلى ١٤٧ •

وزادنى كلفـــا فى الحب أن ينعت
أحب شىء للانســان ما منعــا(٢٣)

وبهذا القول من خبير نقع على تفسير سليم هو الحرمان والمنــع

وهناك من يفسر الأمر تفسيرا آخر فيعيد ذلك الى سبب حضارى، فهو يرى أن شعرالغزل العذرى يمثل ظاهرة فنية ، واتجاها شـــعريا مميزا فشأنه فى الظهور شأن التحولات الفنية الجديدة يغلب أن يكون من ورائها تحول حضارى ، فقد ووجه المجتمع العربى آنذاك بتغيـير هائل وانقلاب مثير،« ووجد نفسه محاربا يدافع عن عقيدة ومنهج غير مجرى الحياة لا فى جزيرته فحسب ، بل فى الدنيا التى يعرفها من حوله، ووجد بداخله صراعا داميا على ولاية الأمر فى نهاية الخلافة الراشدة، ووجد شطرا منه يهاجر من الجزيرة ليستقر فى أقطار جديدة ، ورأى الانسان العربى أنماطا من الحياة لا عهد له بها» ــ اننا حين نضع كل هذا أمامنا ــ « ندرك الى أى مدى كان يعيش فى « أزمة » نفســية عنيفة منذ بدا بين القديم والجديد .. مقبلا حينا على ترف الحضارة واستقرارها ومشدودا حينا الى ذلك التراث النفسى المترســب فى وجدانه ، والى تلك القيم الأخلاقية التى أصبحت من صميم كيانه .

وليس من الشطط أو التعســف فى التــأويل أن نلتمس فيما كان ينشىء هذا الانسان من أدب رموزا وراء تعبيره المباشر تشير الى ذلك الصراع النفسى الذى لعل ذلك الانسان لم يدرك كنهه على وجه التحديد فتسرب ــ بقصد أحيانا ، وبغير قصد فى كثير من الأحيان ــ الى ادراكه وتصويره لتلك التجارب العاطفية .

---

(٢٣) المرجع السابق ٢٠١.

وطبيعى أن يكون الشعور بالغربة والحنين أو الفقد من الرموز الصالحة للتعبير عن ذلك الصراع من خلال الحب العذرى(٢٤) .

ان مثل هذا التفسير يضعنا على مقربة من التشابه بين ظهور الغزل العذرى كظاهرة فنية ، وظهور الاتجاه الرومانسى فى شعرنا الحديث ، فان التحولات الفنية كثيرا ما تكون رد فعل لتحولات حضارية أو تغيرات اجتماعية على نحو ـ ما ـ ، فمن المعروف أن الحركة الرومانسية عندنا « قد نشأت بعد نهضة قومية واقتصادية وحضارية غيرت طبيعة المجتمع وعلاقاته ووضع الفرد فيه .... فقد نشأت طبقة متوسطة كبيرة ، وكان من بين أبنائها عدد كبير من المتعلمين ، والمثقفين الذين بفرديتهم وتميزهم ، ويشعرون بشىء غير قليل من السخط اذ يرون أن هذا التغيير لا يتيح لهم ما يطمحون اليه من شأن فى الحياة ، وفى المجتمع ـ فانعكس ذلك على مذهبهم الفنى ـ فجاء شعرهم يتراوح .... بين التعبير عن التفرد والقدرة الخاصة على الادراك والاحساس ، والتذوق لمظاهر الجمال وقيم الخير ـ وعن ـ الحزن الغائم أحيانا والحاد أحيانا أخرى من خلال تجارب الحياة والحب(٢٥).

ولا يعنى الجمع بين الغزل العذرى والاتجاه الرومانسى العربى فى ردهما معا الى التفسير الحضارى أنهما يلتقيان فى الاتجاهات الفنية كافة ، فان هناك منها ما يلتقيان فيه ، وهناك مالا يلتقيان فيه ، وذلك يدفعنا الى عرض موجز لأهم ملامح وخصائص الاتجاه الرومانسى فى شعرنا العربى الحديث :

---

(٢٤) د. عبد القادر القط فى كتابه « فى الشعر الاسلامى والأموى ١٠٧ مكتبة الشباب القاهرة ١٩٨١ .

(٢٥) المرجع السابق ١٠٥ ـ ١٠٦ .

لعل من أبرز هذه الملامح طغيان العاطفة التى تتقد مشبوبة فى صدق واضح ، وتلك العاطفة فى شعرهم يغلب أن تكون تجربة ذاتية ، فشعراء هذا الاتجـاه قد عكفوا على ذواتهم واستبطنوها ، وأبرزوا دخائلها ومكوناتها المستترة .

ويغلب على هذه العاطفة الجنوح الى الأحزان والاصغاء للآلام حتى لكأن شاعرهم يجد لذة فى أن يصقله الألم ، وينال منه الأسى نيلا عظيما .

وهناك شعور يغمر هؤلاء الشعراء فيعزلهم عمن حولهم هو ذلك الاحساس بالغربة التى تدفع بهم الى الانطـواء على النفس يرهفون احساسـاتهم لنبض جراحها أو يفرون الى الطبيعـة والحب اللذين « يمتزجان بوجدان الشاعر امتزاجا يكاد يتحد فيه الوجود الخارجى بالوجود الداخلى »(٢٦) .

ان ما صدر عن أولئك الأدباء من نتاج ـ ولاسيما الشعر ـ كان ثمرة لأنهم قد التفتوا الى وجدانهم يرقبون من خلاله عالمهم المتغير ، ويعبرون عن تجاربهم الذاتية بأساليب فيها كثير من الحدة العاطفيـة والخيال الجامح والصور المستحدثة(٢٧) .

وقد نادى أولئك بالخروج على بعض التقاليد الفنية الموروثة فى شعرنا كالقافية التى رأوها تحول دون حرية الشاعر فى التعبير فنظم شكرى بعض شعره مرسلا ، وجرى شعراء من جماعة أبولو ، والرابطة القلمية على نظام المقطوعة .

---

(٢٦) د. عبد القادر القط فى الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر ١٤ ط ٤ سنة ١٤٠١/١٩٨١ دار النهضة .

(٢٧) المرجع السابق ص ٩ .

هذه ملامح تميز بها شعر الاتجاه الرومانسى نرى لبعضها وجودا فى شعر العذريين على نحو ــ ما ــ والذى يتتبع شعر العذريين قد يجد فى صور منه ما يؤكد أن فى الغزل العذرى شيئا من ملامح الرومانسية لعل منها :

ــ جيشان العاطفة وانقادها •

ــ الالتفات الى الطبيعة •

ــ الترابط ووحدة الموضوع •• وفيما بعد تبيان ذلك •

أولا : الجيشان العاطفى

يقوم الغزل العذرى على الحب العفيف وهو عاطفة تدور فى فلكها انفعالات متنوعة كالرضا والغضب ، وكالفرح والحزن ، وكاليأس والشعور بالوحشة والحنين ولهذا الحب قدرة على تفجير طاقات من الخبرات النفسية ، وعلى اثارة الانفعالات المتضاربة فى سرعة عظيمة ، وبهذا كان موردا للتجارب الحية التى نرى بها الشعر ، وكلما كان هذا الحب صادقا كان الشعر الذى عبر عنه حافلا بالاثارة والتأثير مستدعيا للمشاركة الوجدانية ، وكان فنا خالصا من الشوائب غنيا بالصدق •

ان هذا الغزل كان العنصر الوجدانى فيه أبرز ما فى عناصر التجربة وحفل بشتى الانفعالات •

أول ما نلاقيه استشعارنا طغيان عاطفة الحب وهيمنتها المطلقة على الشاعر العاشق الذى ينطق شعره بمشاعره الحادة •

لقد بلغ من هيمنة هذا الحب أن فكر ابن الملوح فى هجر فتاته ، وأن يحمل نفسه على السلوى ولكن تجربته باءت بالفشل فما يرى ليلاه الا انقاد لسيطرة الهوى الطاغى • يقول :

وانى لآتيهـا وفى النفس هجـــرها
بتـاتا لأخـرى الدهـــر أو لتثيب
فما هـو الا أن أراهـا فجـــاءة
فأبـهت حتى مـا أكاد أجيـب(٢٨)

ان لقاءها يذهله عن نفسه ، ويحيره ، وكأنما يأخذه بغتة فلا يقدر معه على شيء انها هيمنة الحب القاهرة التى لا سبيل الى ردها .

ان هذه الحيرة لتبلغ به مداها فيقلب الموقف من جميع جوانبه حين يخلو الى نفسه فى صحو يتدبر أمر هذا الحب الجبار ويتســاءل : ما يصنع ؟ .. أيهجر وفى الهجر موت ؟ .. أيصـبر على تجـرع كأس الحرمان .. أيهرب ؟ أيكتم ؟ .. أيبوح .. ماذا يفعل ؟ .. انها للحيرة تأخذه من جميع نواحيه فيقول :

أأقطع حبل الوصـــل فالمـوت دونه
أم أشرب كأسا منكم ليس يشرب ؟(٢٩)
أم أهب حتى لا أرى لى مجـــــاورا
أم أفعل ماذا ؟ أم أبـوح فأغـلب ؟

لا جرم أنه حب عنيف ذلك الذى يصنع هذه الحيرة ، ويصنع ألوانا من المعاناة كالتى يذكرها مجنون ليلى فى قوله :

فبعـــــد ووجد واشتياق ورجفـة
فلا أنت تـدنينى ولا أنا أقـرب(٣٠)

---

(٢٨) الديوان ٥٩ مجنون ليلى بتحقيق عبد الستار فراج .
(٢٩) المرجع السابق ٤٥ .
(٣٠) المرجع السابق ٤٤ .

وأحسب أن مما اضرم نار هذه العاطفة الجموح ما ارتبط بهذا الحب من حرمان رسخ شعورا باليأس ، وهذا الحرمان فرضته — كما أشرت — تقاليد البادية التى تقضى بحرمان من صاغ حبه شعرا من النهاية المشروعة للحب ، ويقيد القائمون على هذه التقاليد حركة المرأة ويقيمون دونها الحجب حتى لا يجد اليها الشاعر العاشق طريقا فيهتف:

كيف السبيل الى ليلى وقد حجبت
عهدى بها زمانا ما دونها حجب(٣١)

والبيت ينطق بأن هذا الحجاب فرض بعد أن كان لقاؤها ميسورا قبل أن يذاع الحب شعرا •

ان هذا الحجاب لن يمنعها من حبه فان استطاعوا منعها دونه فهل فى وسعهم أن يمنعوا خفقان قلبه بهواها :

فان يمنعوا عينى منها فمن لهم
بقلب له بين الضلوع وجيب(٣٢)

ولكن أيغنى عنه خفقان هذا القلب أم يتعلق بأمانى اللقاء فيهتف متهالكا

ألا هل الى ليلى قبيل منيتى
سبيل وهل للناجعين رجوع ؟(٣٣)

انه اليأس قد أحاط به وبغيره من العذريين • يحدثنا جميل عن تمنع بثينة الذى أيأسه فيقول :

---

(٣١) المرجع السابق ٤٨ •
(٣٢) ديوان مجنون ليلى ٥٣ •
(٣٣) المرجع السابق ديوان المجنون ١٩١ •

وقـد أيأسـت من نيلهـا وتجهمت
ولليأس إن لم يقدر النيل أمثل(٣٤)

فهو قد رأى اليأس أمثل لكن العامرى يراه عصيبا حين يقول :

لئن حـال يأسي دون ليـلى لربمـا
أتى اليأس دون الأمر فهو عصيب(٣٥)

وحين يقترن الحرمان باليأس فانهما يعصفان بالشاعر العاشق ويفجران فيه عالما من المشاعر المتصارعة .

نرى منها اللوعة التى يصغى الشاعر لدبيبها الموجع بين جلده وعظامه فيشكو :

وألقى من الحب المبرح لوعـة
لها بين جلدى والعظـام دبيب(٣٦)

إن تلك اللوعة قد يجس الشاعر وطأتها على كبده فيتساءل :

أتقرح أكبـاد المحبـين كالذى
أرى كبدى من حب بثنـة يقرح(٣٧)

فهو حين وجد ما يعانيه فوق الطاقة استبعد أن يحتمل غيره ما يحتمل ، ولعله يود أن يجد له مثيلا فى معاناته حتى يتعزى ، ويجد فى ذلك سلوى تلقى عليه شيئا من برد الراحة التى افتقدها .

---

(٣٤) ديوان جميل ١٦١ .
(٣٥) ديوان المجنون ٥٢ .
(٣٦) المجنون ٥٤ .
(٣٧) ديوان جميل ٤٧ .

وقد تدفع به المعاناة الى صورة من الشكوى الضارعة التي نراها في قول جميل

ألا تتقـــين الله فيمن قتلتـــــه
فأمسى اليـكم خاشـــــعا يتضرع
ألا تتقـــين الله في قتيـل عاشيـــق
له كبـــد حـــرى عليـــك تقطـع
غـــريب مشـــوق مـــولع بادكاركم
وكل غـــريب الدار بالشوق مولع(٣٨)

وفي شكواه عتاب يشي بقدر من الموجدة ، ولكنه يستهدف من وراء ذلك عطفا ووصلا ، وسبيله الى ذلك استثارة مشاعر الاشفاق والحنـــو بما يقدمه من تذلل الخاشع المتضرع ، وبما يعرضه من صورة العاشق القتيل الذي تتقطع كبده من لهيب الوجد وحرارة الأشواق التي هيجتها الغربة والذكريات ، ولا غرو ، فكل غريب الدار مشوق ــ ولما لم تنفعه شكواه الضارعة اليها ، ولم تمتد اليه يد تحنو عليه ، فانه يجعل شكواه الى الله وماذا أمام العاشق المروع سوى الشكوى • يقول :

الى الله أشـــكو لا الى النـــاس حبهـــا
ولابد من شـــكوى حبيب يروع(٣٩)

ولقد خلف الحرمان واليأس وقر الآلام في نفوس أولئك شعورا بالغربة ، فاذا فقد العاشق العذرى الأنس بمن أحب عصفت به الوحشة وتسرب اليه الشعور بالغربة في داره يقول قائلهم :

---

(٣٨) ديوان جميل ١١٨ ــ ١١٩ •
(٣٩) ديوان جميل ١١٨ •

فـــلا تحســـبى أن الغريب الذى نأى
ولكن من تنأين عنـــــه غـــريب(٤٠)

ومن ذلك :

أظـــل غـــريب الدار فى أرض عـــامر
ألا كل مهجـــور هنـــاك غريب(٤١)

ومنه أيضـــا :

ومستوحش لم يمس فى دار غـــربة
ولكنـــه ممـــن يـــود غـــــريب

ان الشعور بالغربة ليمتد حتى انه ليشعر بالغربة عن قلبه الذى خذله ، وأسلمه لزمام حب لا يرحم ، وهوى لا يهدأ ، ولذا يضيق بهذا القلب ، وبكل قلب على شاكلته يقول :

فـــؤادى بـــين أضـــلاعى غريب
ينـــادى من يحب فلا يجيب
أحـــاط به البـــلاء فكل يـــوم
تقـــارعه الصـــبابة والنحيب
لقـــد جـــلب البـــلاء على قلبى
فقلبى ــ مذ علمت ــ له جـــلوب
فان تكن القـــلوب كمثـــل قلبى
فلا كانت اذن تلك القـــلوب(٤٢)

---

(٤٠) ديوان مجنون ليلى ٦١ .
(٤١) ديوان مجنون ليلى ٥٣ .
(٤٢) ديوان مجنون ليلى ٦٣ .

ويستوقفنا من الأبيات قوله (فكل يوم تقارعه الصبابة) فاضافة (كل) الى (يوم) أعطت الدلالة على الاستمرار ، وتأتى كلمة (تقارعه) فتوحى بوطأة هذه الصبابة .

ولما شكا الينا قلبه بتلك الصورة الجازمة التى ينطق بها القسم الذى تؤكده الجملة الاسمية من بعده بما فيها من صيغة المبالغة (فقلبى له جلوب) كان هذا الدعاء متناسقا مع مشاعره فقد أفرغ فيه كل ضجره وأعنى بالدعاء قوله (فلا كانت تلك القلوب ، ولا تغفل قيمة الاعتراض فى البيت الثالث بقوله : ــ مذ علمت ــ بين المبتدأ وخبره (فقلبى ــ مذ علمت ــ له جلوب) فذلك الاعتراض يشعر بأن ذلك منه قديم ، فهو جلوب للبلاء مذ عرفه .

ان اليأس ، والحرمان،والشعور بالغربة ، وما عرضناه من مشاعر أخرى كان لك كله باعثا الى حالة من الضيق بالحياة جعل فكرة الموت تلح على أولئك الشعراء البائسين الذين لم يزدهم عذاب الحب الا اصرارا عليه ، وباتوا لا يملكون من أمرهم شيئا ، وكأن سبيلهم الى الخلاص كأس الموت التى قد تكون أطيب من حياة الفرقة والحرمان ، وهذا ما هتف به ابن ذريح يناجى حبه الذى عذبه :

لقد عذبتنى ياحب لبنى
فقع اما بموت أو حياة(٤٣)
فان الموت أروح من حياة
تدوم على التباعد والشتات

وقد يكون الموت أمنية حين يكون اليأس حظ المحب ، وحين يكون اللقاء قدرا فيقول :

---

(٤٣) من قيس ولبنى « شعر ودراسة » ٧١ .

يا ليتنى ألقى المنية بغتة
ان كان يوم لقائكم لم يقدر(٤٤)

وأحسب أن كلمة (بغتة) تجسم لنا عجلته الى الموت ، فأية قيمة لحياة محب حين يعرف أن القدر لا يتعلق بلقاء حبيبه ؟

وكيف لا يكون الموت أمنية موسوس أفلت من يده زمام عقله ، فلا قدرة له على استقرار ، ولذا فهو يمضى هائما على وجهه من قفر الى قفر لا يلقى موتا مريحا ، ولا يذوق للحياة طعما ، ولا صبر له على الحرمان ، يقول العامرى يرد فضول السائلين :

فقالوا أمجنون فقلت موسوس
أطوف بظهر البيد من قفر الى قفر
فلا ملك الموت المريح يريحنى
ولا أنا ذو عيش ، ولا أنا ذو صبر(٤٥)

ولكن له قبل أن يلفظ الحشاشة وصية هى أن تعطف الى بقية من روحه فتدركها قبل أن يتحقق الموت الذى بات هدفا يتطلع اليه يقول :

ألا ليتنى قد مت شوقا ووحشة
فشوقى وحزنى لايزال جديد
ألا فاذكرى ما قد بقى من حشاشتى
فقد حان موتى والممات أريد(٤٦)

وواضح أن المنية باتت له أمنية ، وأن الشوق والوحشة ما تركا له من الروح الا حشاشة فالموت منه قريب .

---

(٤٤) ديوان جميل ١٠٩ .
(٤٥) ديوان المجنون ١٥٥ .
(٤٦) ديوان مجنون ليلى ١٠٠ .

ولا نغفل هنا دلالة نسق الجملة (والممات أريد) فتقديم المفعول به معرفا يؤكد أن الممات وحده بغيته ، وهو مناط ارادته •

لقد وضح مما تقدم كيف أن العنصر الوجدانى يمثل أبرز العناصر فى شعر العذريين الذى جاء صدى لمشاعر متقدة •• رأيناها لوعة وأسى بل رأيناها ذهولا وحيرة مضنية •• رأيناها بأسا وشعورا بالغربة بل رأيناها ضيقا بالحياة الى حد أن الموت يصبح أمنية •

وبهذا نرى أن جيشان العاطفة وجموح الوجدان الذى عرفناه سمة تغلب فى شعر الرومنسيين هو من أبرز ملامح شعر العذريين •

ثانيا : الالتفات الى الطبيعة

ارتباط الانسان بالطبيعة من حوله ارتباط فطرى مركوز فى طبيعته ولا أعنى هذا الارتباط المادى الذى اتخذ شكل الصراع الذى حاول به الانسان تطويع جانب منها لحياته ، وانما أعنى الارتباط الوجدانى •

ولعله من الملاحظ فى حياة الأفراد أن بعض مظاهر الطبيعة تثير فيهم من الوجدان على قدر ارتباطهم بهذه المظاهر ، فالليل ، والنجوم، والشمس فى شروقها وغروبها ، والمراعى والغدران وسائر مظاهر الطبيعة تربطنا بها ، لأنها مسرح لحياتنا العاطفية ، وهى تفجر فينا الذكريات ، وتثير الأشجان •• واذا كان هذا واقعا فى حياة الفرد العادى ، فان الشاعر المرهف الحس يكون للطبيعة فيه صدى من نوع خاص •• ولاشك أن الشعراء يختلفون كذلك فى احساسهم بالطبيعة تبعا لمجال تعبيرهم ومدى احتفالهم بالطبيعة ، وللشاعر الرومنسى موقف واضح من الطبيعة ، فهو يفر اليها يناجيها ، ويصغى لوقعها فى نفسه ، فيعكس منه على وجدانه ، وقد يضفى على الطبيعة من مشاعره •

نقرأ هذه الأبيات لخليل مطران :

شاك الى البحر اضطراب خواطرى
فيجيبنى برياحه الهوجاء
ثاو على صخر أصم وليت لى
قلبا كهذى الصخرة الصماء
والبحر خفاق الجوانب ضائق
كمدا كصدرى ساعة الامساء
يغشى البرية كدرة وكأنها
صعدت الى عينى من أحشائى
والأفق معتكر قريح جفنه
يفضى على الغمرات والأقذاء

حين نتأمل هذه الأبيات نرى الشاعر يشكو الى البحر خواطره المضطربة ، فيهتز البحر لشكواه ويجيبه متعاطفا معه ، ومعبرا عن ثورته الحزينة برياح هوجاء ، وها هو فى جلسته الطويلة على الصخرة الصماء يتراءى له البحر صديقا يشاركه محنته بجوانب تخفق كمدا مع زفرات صدر الشاعر الحزين ، وليس البحر وحده هو الذى يعيش معه أحزانه بل ان البرية كلها قد غطتها كدرة تراءت لعينى شاعر يطفو ما فى قلبه من قتامة الى هاتين العينين فيرى بهما كل شىء تغشاه ثياب الكدرة، فالأفق عند الشفق لا يطالعه منه جمال يسرى عنه بل يتراءى له ذا جفن قريح أغمض على الأهوال والجراحات .

انه يضفى على الطبيعة من أحزانه ، وتعكس عليه الطبيعة من صورها ما يلائم مزاجه الرومنسى القاتم . ذلك شأن الشاعر العربى المحدث حين اتجه اتجاها رومنسيا ، ولكننا حين نتطلع الى الطبيعة فى شعر العذريين لا نتجه الى القول بأن شأن هؤلاء الشعراء شأن الشاعر الرومنسى فى امتزاجه بالطبيعة ، فقصارى ما يمكن قوله أن للطبيعة

وجودا واضحا فى شعر العذريين ، فأولئك الشعراء قد كان لعناصر الطبيعة التى يعايشونها صدى فى مشاعرهم يبدو وكأنه ارتباط قوى .

ويمكن لنا بعد عرض صورة لهذا الارتباط بالطبيعة فى عناصرها التى به ، وأبرز هذه العناصر ذات الصدى الخاص هى :

أ ــ الريح :

ان الريح التى تسرى اليهم من وادى المحبوبة تهيج حنينهم وتثير شجونهم : يقول ابن الملوح مناجيا هذه الريح :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
فقد زادنى مسراك وجدا على وجد(٤٧)

اننا نلاحظ فى هذه المناجاة ارتباطا بالصبا فهو يبعث فيها حياة ويناديها (يا صبا نجد) ويجىء استفهامه (متى هجت من نجد فيشعرنا بأنه كان يترقبها ، وفيه مع ذلك لمح تعجب لما أثارته فيه من شوق ، ويؤكد هذا الخبر الذى جاء من بعده وهو قوله (فقد زادنى مسراك وجدا على وجد) ، وتستوقفنا كلمة (مسراك) فالريح سرت اليه ليلا حيث كان ساهرا وقلبه معلق بنجد حتى اذا هبت الصبا زادت من وجده وحنينه .

ويفسر لنا الشاعر لماذا كان لها هذا التأثير حين يقول :

قريبة عهد بالحبيب وانما هوى كل نفس حيث كان حبيبها(٤٨)

ولعل ابن ذريح كان أكثر التفاتا الى الأثر الذى تحمله الريح ، فاذا كان الليل مسرح هم يؤرقه فيعانيه فردا ، فان هناك ما يسرى عنه

---

(٤٧) ديوان مجنون ليلى ١١٢ .
(٤٨) ديوان مجنون ليلى ٦٩ .

شيئا من وحشته وهمه ... انها الريح تنعشه بطيب لبنى ، وذلك ما يتضمنه قوله :

سـل الليل عنى كيف أرعى نجومه
وكيف أقاسى الهم مستخليا فردا
كأن هبوب الريح من نحو أرضكم
يثير فتات المسك والعنبر الندا (٤٩)

ب ــ السيل :

للشاعر العذرى ارتباط بالسيل حين يجرى اليه منحدرا من وادى الأحباب ، فيستثير شجونه ، وتجرى دموعه غزارا ، وما ذاك الا لقرب عهد بواديهم ، ولامتزاجه بطيبهم الذى صفاه من كل شائبة . نقرأ لذلك أبيات قيس بن الملوح :

جرى السيل فاستبكانى السيل اذ جرى
وفاضت له من مقلتى غروب
وما ذاك الا حين أيقنت أنه
يكون بواد أنت منه قريب
يكون أجاجا دونكم فاذا انتهى
اليكم تلقى طيبكم فيطيب

جـ ــ حيوان البيئة وطيرها :

من عناصر الطبيعة التى أحاطت بشعراء الغزل العذرى الحيوان ولاسيما الظبى الذى كان له صدى خاص فى قيس بن الملوح فكلما رآه ذكره ليلا ، لما يعكسه من شبه بها،وفى شعره ما يؤكد تعلقه الشديد به

---

(٤٩) من قيس ولبنى « شعر ودراسة » ٨٣ .

لهذا السبب حتى انه يشتريه من صائده ليطلق سراحـــه فما يطيق أن يراه بغية صائد يقول :

شريت بشاتى شبه ليلى ولو أبوا لأعطيت من مالى طريفى ومتلدى

وهناك مقطوعة قصصية أبطالها ظبى ، وذئب ، والشاعر قيس ، وهى بحاجة الى تأمل يقول فيها :

أبى الله أن نبقـــى لحى بشـــــاشة
فصبرا على ما شاء الله لى صـــبرا
رأيت غزالا يرتعى وسط روضـــة
فقلت أرى ليلى تراءت لنـــا ظهـــرا
فيا ظبيا كل رغدا هنيئـــا ولا تخف
فانك لى جـــار ولا ترهبْ الدهـــرا
وعندى لئام حصن حصين وصـــارم
حســـام اذا أعملته أحسن الهبـــرا
فما راعنى الا وذئب قـــد انتجعى
فأعلق فى أحشائه الناب والظفرا(٥٠)
فبوأت سهمى فى كتوم غمزتهـــا
فخالط سهمى مهجة الذئب والنحرا
فأذهب غيظى قتله وشـــفى جوى
بقلبى أن الحر قد يدرك الثـــأر(٥١)

قد نسلم بأن هذا مشهد واقعى وأنه « رأى ظبيا فتأمله ، وذكـــر ليلى فجعل الظبى يزداد فى عينه حسنا ، ثم انه عارضه ذئب ، وهرب منه فتبعه حتى خفيا عنـــه ، ثم وجد الذئب قـــد صرع الظبى ، وأكل

(٥٠) ديوان مجنون ليلى ٥٢ .
(٥١) ديوان مجنون ليلى ١٧١ .

بعضه فرماه بسهم فقتله »(٥٢) ، ولكنه لا ينبغى أن نقف عند الظواهر الحسية السطحية ، ولو دعانا ذلك الى قليل من المخاطرة فى التصور ، فمستهل المقطوعة يشجع على شىء من الاطمئنان الى أن هناك رمـوزا حتى ولو لم يعها الشاعر أو يقصد اليها ، والا فأية رابطة بين فكـرة البيت الأول التى تنبىء بأن سعادته قد غاضت ، وهو يستدعى الصـبر على ما شاء الله له ، وما جاء فى قصة الغـزال والذئب ، وكذلك فان خاتمتها وهى تتحدث عن الغيظ الذى ذهب والجوى الذى شـفى حين أخذ بثأره تدل على أن القضية ليست قضية فى تصورى ليست حكايته مع الذئب والغزال بل أحسب أن للحكاية دلالة أعمـق ، ولا أدل لذلك من أن الغزال ــ كما ذكر ــ لم يعد فى نظره غزالا بل انه رأى فيه ليلى تراءت له ظهرا اذن فالمشهد قد استحال فى رؤاه شيئا آخر ، فألقى اليه بجملة من المشاعر ..

ذكره ليلى يتربص بها من يصر على حرمانها وحرمانه ، وطفر فى نفسه شعور بالمسئولية نحوها فطمأنها الى أنه حصن يمكن أن تلوذ به، ولديه من الأدوات ما يحميها به ، ولكن العدو المتربص كان أسرع اليها من قدرته ويقظته فاغتال حبه ، وهنا كانت رميته للذئب وكان حديثـه عن شفاء النفس بقتله ، وما تبين له من أن فى قدرة الحر أن يدرك ثأره، وأحسب أن سـعادته لمصرع الـذئب بسـهم أطلقـه فأرداه يمكن رؤيتها على أنها انعكاس لشعوره بالظلم ، وأن له ثأرا عند أولئك الذين اغتـالوا حبه ، وافترسـوا أمله ، ان هذه اللقطـة التى قدمها يمكن أن تعد بالنظرة النفسية تعويضا عما فاته وتمنى لو قام به امراجهـة من حرموه ليـلاه فلعلها صحوة وافاقة عبرت سريعا بخاطره لتخرجـه من سلبية أطاحت به وبهواه ، وما لبث بعدها أن عاد سيرته الأولى انه اذا صح ما تصورته فذلك يعنى أن الشاعر قد اتخذ من الطبيعة رموزا

---

(٥٢) تقديم القصيدة بالديوان ١٧١ :

لخواطر حبيسة وصراعا داخليا تموج به النفس التى تستشعر الظلم والحرمان .

ومن عناصر الطبيعة من حوله طير البيئة : الحمام ، والغرابع والقطاة ، ويلاحظ المتابع لشعر أولئك المعذبين حديثا لهم عن الحمام وسجعه ، فسجع الورقاء يهز احساس الشاعر ، فهو عنده تعبير نغمى عن حنين ألف الى الفه ، وصدى لأساه على فراقه ، فهما بذلك أخوهم ولا غرو أن يكون بينهما هذا التلاقى والتعاطف : يقول العامرى :

دعانى الهوى والشوق لما ترنمت
نتوف الضحى بين الغصون طروب
تجاوب ورقا قد أصخن لصوتها
فكل لكل مسعد ومجيب
فقلت حمام الأيك مالك باكيا
أفارقت الفا أم جفاك حبيب ؟
فقال رمانى الدهر منه بقوسه
وأعرض النفى فالفؤاد يذوب(٥٣)

ورقاء ترنمت بسجع حزين تجاوب ورقا أصغين اليها فى تعاطف ودود كأنما هن أخوات يتجاذبن حديث التسرية ، وكان لذلك وقعه فى شاعر عاشق مرهف الحس لطيف الوجدان فاهتزت منه المشاعر ، وأهتاجت الأشواق منه ، وتعاطف مع حمام الأيك فحاوره يتساءل : ماذا أبكاه ؟ أفراق حبيب فهو يعانى ما يعانيه الشاعر ؟ وكان ما توقعه فالساجع الحزين ما أبكاه الا رمية مدمية من قوس الزمن فرقت بينه وبين الفه .

ان تلك المحاورة المؤثرة ترينا الى أى مدى بلغ احساس بالورق من حوله .. أنه الامتزاج ، فبكاء الحمام بكاؤه ، ومثير أشجانه مثير أشجانه ، وكلاهما عاشق يعانى مرارة الفراق .

---

(٥٣) ديوان مجنون ليلى ٥٨ .

ان التجربة تعكس تفاعلا بالطبيعة التى تحيط بالشـــاعر .. واذا كان للحمام هذه الاثارة ، فان الغراب يحتل مكانه المناسب من انفعالات الشاعر العذرى فى غزله ، ويرجع التفات الشاعر الى الغراب واهتمامه به فى تجربته الشـــعرية الى ذلك التصور الذى سرى اليه من مجتمعه البدوى الذى يرتبط الغراب عنده بالشـــؤم ، فنعيب الغـــراب ايذان بالفراق ، ولذا أطلقوا عليه (غراب البين) ، فالشعور الذى يلقيه الى الشاعر هو التوجس ، والخوف والتشاؤم ، والشعراء أكثر استجابة لمثل هذا التأثر لفرط حسهم ، ولاســـيما المحب العذرى ، فلا غـــرابة ـــ اذن ـــ اذا رأينا فى شعره ما يسجل الحقد على هذا الذى يحمـــل اليهم نذر الفراق على هذا النحـــو :

ألا يا غـــــراب البين هيجت لوعتى
فويحك خبـــرنى بما أنت تصـــرخ
أبالبين من ليلى ؟ فان كنت صـــادقا
فلازال عظم من جنـــــاحك يفسخ
ولا زال رام فـــيك فوق ســـــهمه
فلا أنت فى عش ولا أنت تفـــــرخ
ولازلت عن عـــــذب المياه منفرا
ووكرك مهـــدوما وبيضك يرضـــخ
فان طرت أردتك المنـــون وان تقـــع
تقيض ثعبـــــان بوجهك ينفـــخ
وعاينت قبل الموت لحمك مشرحـــــا
على حر جمر النار يشوى ويطبخ
ولازلت فى شر العـــــذاب مخلـــدا
وريشك منتوفا ولحمك يشدخ (٥٤)

---

(٥٤) ديوان مجنون ليلى ٩٦ .

لقد أضاف الغراب للبين لأنه رمزه ، ووضح أثر نعيقه فقد أثار بالغ حزنه ، وهو يتساءل : ماذا تحمل صرخاته المشئومة ؟ يا لله ؟؟ أنذير فراق من ليلى ؟ لو كان هذا فانه غراب لعين خليق بأن تناله تلك الأمنيات :

أن تفسخ منه العظام .. أن تناله رمية تسقطه من عشه .. أن ينقطع نسله فلا يفرخ .. أن يلاحقه كل من رآه فيمنعه عذب المياه .. أن يلاحقه الموت ان طار .. أن ينفخ فيه ثعبان يوكل به ان سقط .. أن يتمتع الشاعر بمشهده مشرح اللحم يشوى على جمر النار .. أن يكون حظه الخلود فى شر العذاب .

غريب هذا الاستقصاء على شاعر بدوى ، فلعله الحقد الثائر يسقط كالحمم على هذا الغراب التعس ، وما ذلك لأنه يحمل نذيرا بفراق ليلى،وذلك يبرز ما لوقع البين من أثر عنيف فى الشاعر ــ لو حدث ــ فاذا كانت تلك غضبته للايذان بالفراق ، فكيف به ان وقع ؟ وتلك أبيات لابن ذريح يقول فيها :

لقد نادى الغراب ببين لبنى
فطار القلب من حذر الغراب
وقال غدا تباعد دار لبنى
وتنأى بعد ود واقتراب
فقلت تعست ويحك من غراب
وكان الدهر سعيك فى تباب
فقد أولعت ــ لا لقيت خيرا ــ
بتفريق المحب عن الحباب(٥٥)

---

(٥٥) قيس ولبنى ، شعر ودراسة ، ٦٤ .

وغراب ابن ذريح واضح الشؤم ، فهو قد نادى بفـراق ليلى ، ونداؤه يترجم فى كلمات صريحة قاطعة (غدا تباعد دار لبنى ، وتنأى بعد ود واقتراب) ، وهو غراب شغوق بتفريق الأحباب ، ولقـد كان لهذا الغراب وندائه أثر فى قيس بن ذريح الذى طار قلبه حـذرا من شؤمه فدعا عليه بالتعاسة وخيبة المسعى .

ونحن نلاحظ تفاوت ما بين القيسين والغرابين . فغراب ابن اللوح لم ينطق بنداء البين ، ولم يكن الشاعر جازما بأنه يحمل هذا النـذير بدليل قوله : (ان كنت صادقا) .

ومع ذلك فقد صب عليه مجنون بنى عامر وابلا من سود الأمانى تنم عن غضبة عاتية وحقد ملتهب ، أما غـراب ابن ذريح فكان أصرح شؤما وبذلك نطقت كلمات ندائه ، ومع ذلك فقد كان الشاعر أكثر هدوءا فى مواجهة الغراب مقتصدا فى دعاء الشر ، وأحسب أنه لا تفسير لذلك الا اختلاف الشخصيتين انفعالا فالعامرى أميل الى الجموح والانفلات ، وابن ذريح أقرب الى الاتزان .

ومن طير البيئة طائر القطاة ، وتجىء فى شـعر ابن اللوح مـادة لصورة فسيحة يقول فيها :

كأن القلب ليلـــة قيل يغـــدى
بليلى العـــامرية أو يـــراح
قطـــاة غرهـــا شرك فبـــاتت
تجـــاذبه وقـــد علق الجنـــاح
لهـــا فرخـــان قد تركا بقفـــر
وعشـــهما تصـــفقه الريـــاح
اذا ســـمعا هبـــوب الريح هبا
وقـــالا : أمنـــا . يأتى الرواح

فلا بالليـــل نـــالت ما ترجـــى
ولا فى الصـــبح كان لها براح(٥٦)

ان الهدف من وراء الأبيات تصوير تأثير توقع الفراق القريب فى نفسه ، وكيف أن ذلك يثير فيه مزيجا من انفعالات حادة يضطرب لهـــا القلب فيكون له خفقان ووجيب يثيره الالتياع ، فيبدو فى حركته العنيفة ــ بلا اتزان ــ فى صورة قطاة وقعت فى أحبولة الصياد ، فأخذت تحاول منه خلاصا ، ولكن هيهات فقد علق الجناح ، ويبدو أن الشاعر لم تكن تعنيه حركة الخفقان الحسية بل هو معنى بما وراءهـــا من مشـــاعر الانقباض ، والتوتر ، والخوف ، والحنين ، ولهذا استقصى فى الصورة لقطات تمتد بها لتوحى بذلك ، فرأينا القطاة البائسة المفزعة ترنو الى فرخيها فى قفر بلا حماية والعش تتهده الريح ، ونســـمع بعد ذلك مع القطـــاة ضراعـــة فرخيهـــا ينـــاديان : أمنـــا • حان موعـــد الرواح فأين أنت ؟ ، وها قد طالت الحركة بالقطاة فى ليلة سوداء لم ينقذها من بعدها صباح خلاص •

ان الباعث الى هذا الاستقصاء الذى يبدو طريفا فى شـــعر بدوى هو الاصغاء الى آلام قلبه المعذب فكلما قدم لقطة تعكس جانبـــا من مشاعره هاجت به مشـــاعر أخرى دفعته الى اضافة غيرها من اللقطات حتى رأينا هذه السعة فى الصورة ، وهى فى النهاية تقول لنا : ان القطاة الملتاعة فى رقصة الذبيح هى قلبه المهتاج بنبأ الفراق •

ومن الطريف أن هذه الصورة الموغلة فى القدم النابعة من البادية

---

(٥٦) ديوان مجنون ليلى ٩٠ ــ ٩١ •

نرى لها صدى فى أشعار الرومنسيين العرب فى عصرنا الحديث يقول شكرى مستعيرا هذه الصورة :

هياج كما هاجت قطاة تعلقت بأحبولة الصياد اذ ليس مهربه

وواضح ما فى الصورة التى استعارها شكرى من تركيز وايجاز ، وما فى صورة العامرى من تحليل واستقصاء .

والرومنسى العربى قدم لنا فى شعره تأثره بنواح الطير كما كان العذرى يتأثر فقال :

من علم الزهر أن يفترلى كذبا
وباكى السحب أن يندى وما صدقا
ونائح الطير ايلامى بمنطقه
كأنه شارح حالى بما نطقا(٥٧)

وثمة ملاحظة أخيرة ونحن نتحدث عن ارتباط العذريين بالطبيعة هى أن الشاعر منهم قد يجد فى صحبة الطبيعة ، وفى احساسه بأن فتاته تشاركه فيها سلوى وتلطيفا لألم الفراق فأولئك الذين منعوها منه لن يحرموه احساسه بالارتياح حين يرضى نفسه بأنه يكفيه أن ثوب الطبيعة الرحب يلفه ، ويلف فتاته يقول الشاعر :

ان تك لبنى قد أتى دون قربها
حجاب منيع ما اليه سبيل
فان نسيم الجو يمع بيننا
ونبصر قرن الشمس حين تزول

---

(٥٧) د. عبد القادر القط فى الاتجاه الوجدانى ١٠٤ .

وأرواحنـــا بالليـــل تلتقـــى
ونعـــلم أنا بالنهـــار نقيـــل
وتجمعنـــا الأرض القرار وفوقنا
سماء نرى فيها النجوم تجول(٥٨)

الى أن يعود الدهر سلما وتنقضى

انه قد وجد فى الطبيعة سلوى وعذاء ، فهى تعوضه عن شىء من الحرمان الذى كان قدره ، ذلك لأنها مسرح للقاء روحى فى عالم يصنعه تصوره •

ان فيما قدمت دلالة على وجود للطبيعة فى شعر العذريين ، فقد كانت لهم مهربا لاذوا بأحضانه يجدون فيها سلوى لأحزانهم،ولا أعنى أن وقفتهم منها هى وقفة الرومنسى،وانما يمكن القول بأنها كانتحاضرة فى تجربتهم على نحو يقترب من حضورها فى شعر العذريين •

ولعل فيما قدمت ما يصلح ردا على أحـــد الدارسين حين قال : « •••• فمما يدعو الى التأمل أن هذا الشعر — يعنى العذرى — يكاد يخلو من الالتفات الى الطبيعة كخلفية للتجربة العاطفية ، أو كاطـــار للصورة الشعرية ، وأن الشاعر لا يكاد يلم بما يتصل بالطبيعة بسبب حتى يربطها ربطا سريعا بالتجربة العاطفية دون أية محاولة للتفنن فى استقصاء الصورة الفنية للطبيعة »(٥٩) •

وأحسب أن مثل هذا القول قد جاء على عجـــل ، ولم يأت ثمـــرة لنظرة تستأنى فى تأمل شعر العذريين ، وماذا كنا نطلب اليهم حتى نراهم قد تفننوا واستقصوا ؟ اننا نظلم تراثنا حين نخضعه لمقاييس النقـــد

---

(٥٨) قيس ولبنى « شعر ودراسة » ١٤٠ •
(٥٩) د• عبد القادر القط فى الشعر الاسلامى والأموى ١٣٤ •

الحديث ، وحين نطلب من شاعر أموى أن يكون الصورة نفسها التى نراها فى شاعر رومنسى احتفل بالطبيعة أو فسنى فيها على حد تعبيرهم، ولقد احترس صاحب هذا القول الذى عرضته حين استثنى من حكمه بعض مظاهر الطبيعة التى رأى أن العذرى أكثر التفاتا اليه فقال :

« ولا يكاد يستثنى من تلك العجلة فى الالمام بمظاهر الطبيعة الا حديثهم عن الورق والحمائم،وما يثيره بكاؤها فى نفوسهم من أشواق وأشجان »(٦٠) ، ولكنى قدمت تأثر العامرى بالظبى والذئب فى تلك المقطوعة القصصية التى تصلح نواة للرمز بمظاهر الطبيعة ، وحركة الشاعر تجاهها الى معان نفسية عميقة ، وكذلك قدمت تفاعل العذريين مع الغراب ، وانتزاع العامرى صورة تؤكد امتزاج خياله بما يمكن أن تلقاه القطاة ، ولعله انعكاس لواقع رآه على نفسه، وأظن أن ذلك يفتح مجالا لدراسة أعمق حول الطبيعة فى تجارب شعرائنا العذريين فى العصر الأموى .

ثالثا : ظاهرة الترابط :

آثرت التعبير بالترابط بديلا عن الوحدة الفنية حتى لا تحملنى الحماسة للفكرة الى حمل الشعر العذرى على غير وجهه ، فقصارى ما أصنعه عرض أمثلة من صور بدا لى أن فيها ترابطا على نحو ما قد يحمل على الوحدة النفسية ، أو وحدة الموضوع ، أو يتجاوز ذلك .

ان هذا اللون من الشعر قد تهيأت لترابطه أسباب قوية أعانت على ظهوره فيه أكثر من ألوان الشعر الأخرى ، وأبرز هذه الأسباب :

---

(٦٠) د. عبد القادر القط فى الشعر الاسلامى والأموى ١٣٤ .

أ ــ وضوح العاطفة التى خلقت فى الغالب ما يكاد يكون وحدة نفسية ، فقد يتقلب الشاعر بين احساسات متنوعة من شوق ، ويأس، ورجاء ، وحيرة ، وحزن ، ولكن هذه الانفعالات ، مهما تنوعت يضمها خيط واحد هو التجربة العاطفية المنبعثة عن الحب العذرى .

ب ــ أن شعراء هذا اللون الغزلى عدلوا عن القصيدة التقليدية السائدة الى وحدة الغرض وعدم التقيد بالمطلع التقليدى ، وكان هذا دأبهم الا فى قليل من شعر جميل .

جـ ــ أن أكثر هذا الشعر كان مقطوعات قصيرة ، والمقطوعة بطبيعتها أقدر على الوفاء بالترابط ، ذلك لأن القصيدة اذا طالت اهتز الخيط فى يد الشاعر غير المتمرس ، بالبناء العضوى كما رأى أحد الباحثين بقوله :

« فالمقطوعات القصيرة من ذلك الشعر ــ يعنى العذرى ــ تبدو أشد تماسكا ، وأكثر استقصاء للحالة الشعورية أو الصورة الشعرية من القصائد الطويلة »(٦١) .

ولكن هذه الأسباب مهما تكن فاعليتها قد أوهن من تأثيرها واتجاهها الايجابى نحو الوحدة ما أصاب هذا الشعر من خلط واضطراب، فقد وقع فيه ما لم يقع فى غيره ، فقد ضمت القصيدة منه أبياتا لأكثر من شاعر ، وقد تنسب لأكثر من شاعر ولعل ذلك راجع الى ما جمع لهذا الشعر من : وحدة الاتجاه .. قرب المنزع .. تلاقى الدوافع .. تشابه الظروف .. المعاصرة فقد عاش أكثر من شاعر من شعراء هذا الفن فى زمن واحد،وروى أن القيسين بن الملوح وابن ذريح كانا يلتقيان

---

(٦١) د. عبد القادر القط فى كتابه الشعر الاسلامى ١٣٦ .

فيتشاكيان.. اتفق اسمى ليلى ولبنى فى الوزن مما يسر وضع احداهما موضع الأخرى دون اخلال بالوزن الشعرى .

اختيار الشعر العذرى للغناء ، فالذى يعنى المختار صلاحية الشعر للغناء فهو يختار مما يلتقى وزنا ويجمل غناء ، ولا تعنيه النسبة الى الشاعر .. أن هذا كله لم يقابل بدقة الرواية والحرص على التمحيص.

لقد أفسد هذا الخلط ترابط كثير من القصائد فبدت متناثرة لا يكاد يضمها نظام وأحسب أنه لولا هذا الخلط ، ولو أن القصيدة سلمت منه لبدت لنا وحدتها أكثر ظهورا ، وأقدم بعد هذا بعض مظاهر الترابط فى المقطوعة العذرية .

أ ــ اعتماد الشاعر على الترابط النحوى الذى يحقق امتدادا للجملة عبر أبيات من الشعر غير هياب ، ولا ملق بالا الى منهج غيره ممن تفادوا التضمين الذى عد فيما بعد عيبا من عيوب القافية ، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر :

كأن القلب ليلة قيل يغدى
بليلى العامرية أو يراح(٦٢)
قطاة غرها شرك فبانت
تجاذبه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تركا بقفر
وعشهما تصفقه الرياح

فواضح أن كلمة (قطاة) خبر لاسم كأن وهو القلب ، وواضح ــ كذلك ــ أن جملة (لها فرخان) فى مطلع البيت الثالث صفة لقطاة

---

(٦٢) ديوان مجنون ليلى ٩٠ .

أو خبر بعد خبر ، وذلك يجعل من الأبيات الثلاث جملة نحوية واحدة ، فاذا أضفنا الى هذا ما بينته آنفا من امتداد الصورة فى هذه المقطوعة عند تناولى اياها فى دراسة الطبيعة فى الشعر العذرى ، وضح لنا ما تمتعت هذه المقطوعة من ترابط يكاد يكون وحدة فنية،وهذا الذى ذكرت من قيمة البناء النحوى فى دعم الترابط هو نظرة الباحث فى الصورة والبناء الشعرى ، وفى الحديث من هذا الشعر وتلك أبيات لعلى محمود طه فى مطلع قصيدته عن الموسيقية العمياء وتعقيب باحث يدعم ما قلت:

اذا ما طاف بالأرض ... شعاع الكوكب الفضى
اذا ما أتت الريح ... وجاش البرق بالومض
اذا ما فتح الفجر ... عيون النرجس الغض
بكيت لزهرة تبكى ... بدمع غير مرفض

ـ يقول الباحث : « وفى مثالنا الذى نعايش تلعب «اذا» الشرطية دورا مزدوجا ، فهى رابط عضوى بين طرفى الجملة ، وتكرارها يعنى استمرار سلسلة الربط ، وكأن المشاهد المتتابعة تمثل حلقات أو مشاهد صغيرة ضمن اطار ممتد ، وهى بتكرارها تحتفظ بتطلعنا معلقا أى تمتد الحالة الشعورية التى يثيرها توقع الجواب (جواب الشرط) الى أن تكون « بكيت » جوابا عنها جميعا فتتوحد الشوادر فى الشعور الذى صنعته كما توحدت دلالتها الفكرية »(٦٣) .

ان امتداد الجملة الشرطية على النحو الذى طالعتنا به الأبيات قد حققت وحدة الصورة ووحدة البناء الشعرى ، وقد جعل الباحث هذا الربط عضويا بقوله السابق عن « اذا » (فهى رابط عضوى) وأحسب أنه عنى ربط البناء الشعرى .

---

(٦٣) محمد حسن عبد الله فى الصورة والبناء الشعرى ١٨١ ـ ١٨٢ دار المعارف ١٩٨١ .

ب ــ اعتماد الشاعر العذرى على « الاستدارة » وهى « جملة متوسطة الطول تشتمل على فاتحة وخاتمة ، وتتألف من فواصل ترتبط باحكام ، وتتساوق فى نظام ، وتحمل كل فاصلة من فواصل الفاتحة جزءا من المعنى بحيث لا يتم الا بذكر ــ الجزء الأخير وأعنى ــ «الخاتمة» ، ... »(٦٤) ، وتعتمد تلك الاستدارة على طريق قوامه المفاضلة ، ونسوق من ذلك قول العامرى فى مقطوعة له يقول فيها :

فما وجد مغلوب بصنعاء موثق
لساقيه من ثقل الحديد كبول
قليل الموالى مستهام مروع
له بعد نومات العشاء عويل
يقول له الحداد أنت معذب
غداة غد أو مسلم فقتيل
بأعظم منى روعة يوم راعنى
فراق حبيب ما اليه سبيل(٦٥)

ونحن نرى للاستدارة (فاتحة) تمثلت فى المبتدأ المنفى (ما وجد مغلوب ، ونرى فيها فواصل ترتبط باحكام ، وتتمثل فى هذه الصفات المتتابعة : (موثق .. له كبول .. قليل الموالى .. مستهام .. مروع .. له عويل .. يقول له الحداد) وتعد هذه الفواصل جزءا من المعنى الذى يتساوق ، ولكنه لا يتم الا بذكر « الخاتمة » وهى الخبر المجرور لفظا المرفوع محلا فى قوله (بأعظم) ولاريب فى أن متابعة الصفات فى تتابعها يجعل المتلقى مشوقا الى الخبر فاذا ما جاء مؤكدا بالباء الزائدة تم به المعنى وارتاحت اليه النفس من تطلعها وانتظارها.هذا

---

(٦٤) أحمد حسن الزيات فى دفاع عن البلاغة ١١٢ القاهرة١٣٦٤هـ
(٦٥) ديوان المجنون ٢٢٢ .

من جهة .. ومن جهة أخرى فان هناك الجانب التصويرى ، فقد لاحظ الشاعر وجه الشبه بين هذا المغلوب فى معاناته وما يلاقيه من ارتيـاع لفراق من يحب فجمع بين الطرفين بطريق المفاضلة ، ولكى تبرز معاناته رأيناه يستقصى عناصر الحصار المحكم على هذا المغلوب ليقول لنا فى النهـاية انه أعظم ارتيـاعا من هذا المغلـوب . وواضح ما حققتـه « الاسـتدارة » فى منهجها من ترابط ، يبدو وكأنه وحدة عضـوية فى نطاق هذه الأبيـات ، وأود أن أشـير الى أننى لو أردت عرض ما فى الشعر العذرى من صور الاستدارة ، لطال العرض ، وقـد قلت اننى استغنى بمثال عن غيره ، والتشبيه على سبيل المفاضلة يعنى أن « يرى الشاعر وجه شبه بين صورتين مختلفتـين ، فيقابل بينهما ، ويفضـل احداهما على الأخرى يبدأ دائما بالمفضول منفيا لينتهى دائما بالمفضل مثبتـا »(٦٦) .

وتتبع قيمة هذه الصورة الحسية من عدة مصادر :

ـ ما تعكسه من معاناة شاعر هو حريص على ترسيخ الاحساس بها فى وجدان المتلقى .

ـ قدرتها على استدعاء حواس المتلـقى لتتابع تلك الاضـافات المتلاحقة التى يضمها الشاعر الى الصورة ، وقدرته كذلك عـلى اثارة الانتباه والشوق الى معرفة المفضل المؤخر .

ـ الانتفاع بالصورة الفسيحة فى اثارة مشاعر المتلقى حين يتابع صورة المغلوب المقهور يلف ساقيه ذلك القيد الثقيل المجهد ، وهو فى وحشته ووحدته الواهنة بلا ناصر .. تفترسه المخاوف والمصير الأسود

---

(٦٦) د. سيد غازى فى « الأخطل شاعر بنى أمية » ١٥٥ ط ٤ ١٩٧٩ دار المعارف القاهرة .

الذى ينتظره ، وحين تنفعل النفس بهذه المعاناة انفعال الاشفاق،وينتقل به خياله الى ما يؤكده الشاعر من أن ارتياعه بالفراق فوق معاناة هذا المغلوب ، فان خياله هذا يجرى ليترسم صـورة ما هو أقسى من هذه المعـاناة .

ووأضح أن الصورة ترينا كيف تحاصر الشاعر عاطفة الحب كمـا تحاصر المغلوب قيود لا سبيل الى حطمها ، وذلك الوحى الخفى وراء الصورة الفسيحة التى أعانتها الاستدارة على تحقيق هذا الترابط .

وليس هناك من حرج فى تقديم صورة أخـرى من شعر جميـل يقول فيها :

فما روضة بالحزن جاد قرارهـــا
نجـاد من الوســمى أو ديم هطـل
بها قضب الريحان تندى وحنـــوة
ومن كل أفـــواه البقول بها بقـل
بأطـيب من أردان عـــزة موهنا
ألا بل لرياها على الروضة الفضل(٦٧)

وقد سلك الشاعر المنهج نفسـه : النعى .. ، والاستقصاء .. ، والاتيان بالمفضل مثبتـا والذى يريد الشـاعر أن ينقله الينا هـو أن احساسه بطيب بثينة يرفع طيبها فـوق طيب روضة على ربوة أينعت أوائل الربيع بفضل ما نالت من مطر فتح أزهارها ونضر ريحـانها ، والجديد هو دعم توكيد الباء بتوكيد آخر ضمه الشطر الأخير من البيت الثالث بقوله (ألا بل لرياها على الروضة الفضل) .

---

(٦٧) من ديوان جميل ١٥٨ .

وقد يقال ان هذه الطريقة ربما كان لها جذور فى شعر الجاهليين على نحو قول الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة
خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق
مؤزر بعميم النبت مكهل
يوما بأطيب منها نشر رائحة
ولا بأحسن منها اذا دنا الأصل(٦٨)

وقد يقال انها كثرت الى حد ــ ما ــ فى شعر الأخطل على نحو قوله :

ما روضة خضراء أزهر نورها
بالقهر بين شقائق ورمال
بهج الربيع لها فجاد نباتها
ونمت بأسحم وابل هطال
يوما بأملح منك بهجة منطق
بين العشى وساعة الآصال
حسنا ولا بألذ منك وقد صنعت
بعض النجوم وبعضهن توالى(٦٩)

ومع تسليمنا بهذا فان تكرارها فى شعر العذريين بصورة أكثر تعددا يحملنا على القول بأن هذه الاستدارة بدت وكأنها طريقة العذريين المفضلة .

---

(٦٨) شكرى فيصل فى تطور الغزل ١٧٠ ــ ١٧١ .
(٦٩) سيد غازى فى الأخطل ١٥٧ .

جـ ــ وليس ما قدمته هو قصارى ما حققه الشاعر العذرى من ترابط فان هناك كثير من صور الترابط لا يرتبط بالاستدارة ومن ذلك قول العامرى :

متى يشتفى منك الفؤاد المعذب
وسهم المنايا من وصالك أقرب
فبعد ووجد واشتياق وغربة
فلا أنت تدنينى ولا أنا أقرب
كعصفورة فى كف طفل يزمها
تذوق حياض الموت والطفل يلعب
فلا الطفل ذو عقل يرق لما بها
ولا الطير ذو ريش يطير فيذهب
ولى ألف وجه قد عرفت طريقه
ولكن بلا قلب الى أين أذهب

تلك مقطوعة من مقطوعات كثيرة تحظى بقدر من الترابط ، وتمتاز ــ كذلك ــ مثل كثيرات من مقطوعات قيس بهذه العاطفة المهتاجة ، وتنطق هذه الأبيات بمعاناة شاعر أمض العذاب فؤاده المكدود بما يلاقيه من عذاب البعد ومرارة الوجد ومن هذا التردد الذى اتسم به المحبان، فقضى عليهما بهذا الحرمان .. ويكاد من يتأمل هذه المقطوعة أن يمسك هذا الخيط الوثيق الذى يربط أبياتها .. فلما كان البيت الأول حديثا مجملا عن الفؤاد المعذب جاء البيت الثانى تفصيلا لعناصر ممثلة فى البعد والوجد والرجفة والتردد الحائر ... أما البيتان : الثالث والرابع ، فيجيئان بيانا تصويريا موضحا لهذا العذاب .. ويجىء البيت الأخير ليرد على تصور من يحسب أن له مخرجا ، فمهما لاحت له الوجوه والمسالك ، فأنى له أن يذهب فى طريق ولا قلب معه ؟

وقد أعان على ابراز الترابط امتداد الصورة وتحليل عناصرها ، فهو فى معاناته كعصفورة يلهو بها طفل مولع باللعب ، وقد ربط هذه البائسة ، فهى تذوق كأس الموت بين يديه العابثتين • والطفل بلا عقل ليرحم والعصفور بلا ريش لتطير •

ان الصورة منتزعة من الحس ، ولكنها ذات رموز وايحاءات تنطق بالألم ومر المعاناة ، فالشاعر رمز لضعفه وتهالكه بالعصفورة التى لاريش لها ورمز لعدم مبالاة ليلى بمعاناته بطفل لا يعرف معنى الرحمة، لأنه لا يعقلها وهو فى النهاية أحكم الحصار حول نفسه بهذه الصورة فى جملتها ، فهى تنطق بأنه ماله الى خروج من سبيل •

وأستطيع القول مطمئنا ان هذه المقطوعة بما تحقق لها من وحدة نفسية واتساق فى بناء الأبيات تقترب بنا كثير من الوحدة العضوية •

ومما تقدم كله يتبين لنا أن قدرا من ملامح الرومنسية فى الشعر العربى الحديث نجده فى الغزل العذرى •

لقد رأينا أن هذا الشعر زاخر بالعاطفة الجياشة التى تمثلت فى الحنين ، واللوعة ومعاناة مرارة الحرمان •

وهذا الشعر يعكس الشعور بالغربة ، ويجسم ضيق الشاعر بالحياة حتى لقد باتت فكرة الموت تلح عليه كما تلح على شاعر الرومنسية فكلاهما يرى فى الموت راحة من معاناته •

وقد وضح لنا أن الشاعر العذرى ذو صلة وثقى بالطبيعة ، فهو قد تفاعل معها وحاول فى ود تطويعها لبيان حواسه،والرمز بها لمشاعره، وحسبنا ما قدمنا من مقطوعات تبرز هذا المدى الذى ذهب اليه هذا الشاعر وهو يناجى الطبيعة •

ومن الملامح وضوح الترابط فى هذا الشعر ولاسيما المقطوعات التى تبدو أكثر تماسكا ، وذلك لعوامل ذكرت منها :

العلاقات النحوية .. الاعتماد على الاستدارة التى بينت مفهومها ودورها .. انفساح الصورة وامتدادها فى أكثر من بيتين .. وحدة الغرض ووحدة الجو النفسى .

ولعلى بما قدمت قد قربت بين جديدنا وقديمنا بما بينهما من مشابه .

ولا أدعى أن البحث قد استقصى كل ما عسى أن يلتقيا فيه،وحسبى أنى لم أكره نصا على عطاء ملمح من الملامح التى قررها البحث،وأحسب أن هذا البحث يمكن أن يعد خطوة على طريق التلاقى بين قديم نعتز به وجديد نألفه لقرب ما بيننا وبينه ومما لاريب فيه أن كل تقريب بينهما فيه صون لتراثنا ، وترقية لجديدنا بتأصيل هذا الجديد .

والله أسأل أن يفتح لى الطريق الى خطوة أخرى ...